(١٧)

باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب: قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]).

ش: سبب نزول هذه الآية: موت أبي طالب على ملة عبد المطلب، كما سيأتي بيان ذلك في حديث الباب.

قال ابن كثير: يقول تعالى لرسوله: إنك يا محمد ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، أي ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ والله يهدي من يشاء. وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

قلت: والمنفى هنا هداية التوفيق والقبول، فإن أمر ذلك إلى الله، وهو القادر عليه. وأما الهداية المذكورة في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] فإنها هداية الدلالة والبيان، فهو المبين عن الله والدال على دينه وشرعه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (في الصحيح عن ابن المسيب عن أبيه، قال: (لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية، وأبو جهل، فقال له: «يا عم قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله». فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ، فأعاد. فكان أخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب. وأبى أن يقول لا إله إلا الله. فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك مالم أُنهَ عنك»). فأنزل الله عز وجل ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦][(١)].

ش: قوله: في (الصحيح) أي في (الصحيحين).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، حديث (١٣٦٠)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع وهو الغرغرة...، حديث (٢٤).

وابن المسيب: هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمر بن عائذ، بن عمران، بن مخزوم، القرشي، المخزومي، أحد العلماء والفقهاء الكبار السبعة من التابعين. اتفق أهل الحديث على أن مراسيله أصح المراسيل. وقال ابن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علمًا منه. مات بعد التسعين وقد ناهز الثمانين.

وأبو المسيب صحابي، بقي إلى خلافة عثمان رضي الله عنه، وكذلك جده حزن، صحابي استشهد باليمامة.

قوله: (لما حضرت أبا طالب الوفاة) أي علاماتها ومقدماتها.

قوله: (جاء رسول الله ﷺ) يحتمل أن يكون المسيب حضر مع الاثنين فإنهما من بني مخزوم، وهو أيضًا مخزومي، وكان الثلاثة إذ ذاك كفارًا، فقتل أبو جهل على كفره وأسلم الآخران.

قوله: «يا عم» منادى مضاف، يجوز فيه إثبات الياء وحذفها، حذفت الياء هنا، وبقيت الكسرة دليلاً عليها.

قوله: «قل لا إله إلا الله» أمره أن يقولها لعلم أبي طالب بما دلت عليه من نفى الشرك بالله، وإخلاص العبادة له وحده، فإن من قالها بعلم ويقين فقد برئ من الشرك والمشركين ودخل في الإسلام. لأنهم يعلمون ما دلت عليه، وفي ذلك الوقت لم يكن بمكة إلا مسلم أو كافر. فلا يقولها إلا من ترك الشرك وبرئ منه.

ولما هاجر النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة: كان فيها المسلمون الموحدون، والمنافقون الذين يقولونها بألسنتهم وهم يعرفون معناها، لكن لا يعتقدونها، لما في قلوبهم من العداوة والشك والريب، فهم مع المسلمين بظاهر الأعمال دون الباطن.

وفيها اليهود، وقد أقرهم رسول الله ﷺ لما هاجر، ووادعهم بأن لا يظاهروا عليه عدوًا كما هو مذكور في كتب الحديث والسير.

قوله: «كلمة» قال القرطبي: بالنصب على أنه بدل من لا إله إلا الله، ويجوز الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف.

قوله: «أحاج لك بها عند الله هو بتشديد الجيم من المحاجة.

وفيه: دليل على أن الأعمال بالخواتيم، لأنه لو قالها في تلك الحال معتقدًا ما دلت عليه مطابقة من النفي والإثبات؛ لنفعته.

قوله: (فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب) ذكراه الحجة الملعونة التي يحتج بها

المشركون على المرسلين، كقول فرعون لموسى: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١] وكقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

قوله: (فأعاد النبي ﷺ فأعادا فيه معرفتهما لمعنى لا إله إلا الله؛ لأنهما عرفا أن أبا طالب لو قالها لبرئ من ملة عبد المطلب. فإن ملة عبد المطلب هي الشرك بالله في إلهيته. وأما الربوبية فقد أقروا بها كما تقدم. وقد قال عبد المطلب لأبرهة: أنا رب الإبل، والبيت له رب يمنعه منك.

وهذه المقالة منهما عند قول النبي ﷺ لعمه: «قل لا إله إلا الله» استكبارًا عن العمل بمدلولها. كما قال الله تعالى عنهما وعن أمثالهما من أولئك المشركين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥-٣٦] فرد عليهم بقوله: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧].

فبين تعالى أن استكبارهم عن قول لا إله إلا الله؛ لدلالتها على نفي عبادتهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله. فإن دلالة هذه الكلمة على نفي ذلك دلالة تضمن، ودلالتها عليه وعلى الإخلاص دلالة مطابقة، ومن حكمة الرب تعالى في عدم هداية أبي طالب إلى الإسلام ليبين لعباده أن ذلك إليه، وهو القادر عليه دون من سواه.

فلو كان عند النبي ﷺ، الذي هو أفضل خلقه من هداية القلوب، وتفريج الكروب، ومغفرة الذنوب، والنجاة من العذاب، ونحو ذلك شيء، لكان أحق الناس بذلك وأولاهم به عمه؛ الذي كان يحوطه ويحميه وينصره ويؤويه، فسبحان من بهرت حكمته العقول، وأرشد العباد إلى ما يدلهم على معرفته وتوحيده، وإخلاص العمل له وتجريده.

قوله: (فكان آخر ما قال) الأحسن فيه الرفع على أنه اسم كان، وجملة هو وما بعدها الخبر.

قوله: (هو على ملة عبد المطلب) الظاهر أن أبا طالب قال: أنا؛ فغيره الراوى استقباحًا للفظ المذكور، وهو من التصرفات الحسنة، قاله الحافظ.

قوله: (وأبى أن يقول لا إله إلا الله) قال الحافظ: هذا تأكيد من الراوى في نفي وقوع ذلك من أبي طالب.

قال المصنف رحمه الله: **(وفيه الرد على من زعم إسلام عبد المطلب، وأسلافه، ومضرة أصحاب السوء على الإنسان، ومضرة تعظيم الأسلاف)**.

أي: إذا زاد على المشروع، بحيث تجعل أقوالهم حجة يرجع إليها عند التنازع.

قوله: فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» قال النووي: وفيه جواز الحلف من غير استحلاف. وكأن الحلف هنا لتأكيد العزم على الاستغفار؛ تطييبًا لنفس أبي طالب.

وكانت وفاة أبي طالب بمكة قبل الهجرة بقليل.

قال ابن فارس [١]: مات أبو طالب ولرسول الله ﷺ تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يومًا، وتوفيت خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها بعد موت أبي طالب بثمانية أيام.

قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣] الآية، أي: ما ينبغي لهم ذلك. وهو خبر بمعنى النهي، والظاهر أن هذه الآية نزلت في أبي طالب. فإن الإتيان بالفاء المفيدة للترتيب في قوله: (فأنزل الله) بعد قوله «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» يفيد ذلك.

وقد ذكر العلماءُ لنزول هذه الآية أسبابًا أُخر، فلا منافاة؛ لأن أسباب النزول تتعدد.

قال الحافظ: أما نزول الآية الثانية فواضح في قصة أبي طالب. وأما نزول الآية التي قبلها ففيه نظر.

ويظهر أن المراد: أن الآية المتعلقة بالاستغفار نزلت بعد أبي طالب بمدة، وهي عامة في حقه وحق غيره.

ويوضح ذلك ما يأتي في التفسير: فأنزل الله بعد ذلك: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣] الآية. ونزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

كله ظاهر في أنه مات على غير الإسلام. ويضعف ما ذكره السهيلي أنه روى في بعض كتب (المسعودي) [٢] أنه أسلم، لأن مثل ذلك لا يعارض ما في الصحيح. انتهى.

وفيه تحريم الاستغفار للمشركين وموالاتهم ومحبتهم، لأنه إذا حرم الاستغفار لهم فموالتهم ومحبتهم أولى.

---

(١) هو: أحمد بن فارس بن زكريا الرازي أبو الحسين اللغوي، ولد بقزوين ونشأ بهمذان، وكان أكثر مقامه بالري، كما سافر إلى بغداد في طلب الحديث. كان فقيهًا شافعيًا، متكلمًا، نحويًا، شاعرًا. له مصنفات منها: أخلاق النبي ﷺ، أصول الفقه، جامع التأويل في تفسير القرآن، ذم الغيبة وغيرها. توفي سنة (٣٩٠هـ).

(٢) هو: علي بن الحسين بن علي المسعودي، مؤرخ، أخباري، صاحب غرائب، قال ابن حجر: وكتبه طافحة بأنه كان شيعيًا معتزليًا. من كتبه: مروج الذهب ومعادن الجوهر في تحف الأشراف والملوك، بيان أسماء الأئمة القطعية من الشيعة، نظم الأدلة في أصول الملة. توفي سنة (٣٤٥هـ). انظر: لسان الميزان (٤/ ٢٢٤).